مناظر الماضي :

الاسكندرية
في عصورها الاسلامية

للأستاذ أحمد رمزي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

فهذه الاسكندرية التي يحاول البعض أن تطغى على عروبتها كليوبطرة والبطالمة والأغارقة ! هي كما نرى في تاريخنا الحي الذي ننحدر من أصلابه : كانت موئل المجاهدين والمقاتلين والثائرين الذين لم ترهبهم قوة الحدثان ، ولا أخافهم بأس العدو ولا هد من عزيمتهم توالي الخطوب .

ولقد عاشوا وفي قلوبهم — كما قلت — نخوة وحماسة ودفعة ، وفي أخلاقهم بأس المجاهدين والمرابطين ، وفي عروقهم دماء أولئك الأبطال ، الذين كانوا يقومون كل عام بالصائفة في بلاد الروم ، ويحشدون الحشود إلى آسيا الصغرى وانطاكية وثغورها . فأين هم والأغارقة ؟! . ولماذا لا تسمى الأشياء بأسمائها ؟! .

ومن الغريب أن أسلافنا لم يغمطوا القدماء حقهم ! ! . فقد ذكر المقريزي في خططه : « أن هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعاً » . ونقل عن وصيف شاه : « أن العمارة كانت ممتدة من رمال رشيد إلى الاسكندرية ومنها إلى برقة . » فكيف بأتى في عصرنا من يغمط حق أسلافنا ؟ ومع هذا فالعمران الذي كان سائداً في القديم تولاه بمنايتهم السلطون في أيامهم ، فقد ذكر جغرافيو العرب[1] أن هذا العمران بقي وزاد بدليل ما جاء من وصف البلاد بين سخا والاسكندرية ، وما ذكروه عن الحمامات والمساجد والأسواق على الطريق ووصفهم لزراعات الكتان ومعاصر زيت الفجل ، وما كانت عليه المدينة من رواج الصناعة

(١) ابن خرداذبة — راجع خطط المقريزي صفحة ٢٦٢ الجزء الأول

أكبر وهي حرب الغرامية بكرها وثيبها ، بمنفها وليتها ، مع المرأة ، أو حرب داحسية من أجل المرأة إذا ما حاول غيره أن يتملكها أو يغتصبها منه . غير أن هذا التأويل قد يكون بعيداً لا يخلو من المبالغة حتى أن « فرويد » نفسه الذي يعزو كثيراً من مظاهر سيكولوجية الإنسان إلى دوافع جنسية لا يرى في غريزة الحروب عاملا جنسياً . ويقول فرويد : إن غريزة الحروب عند الأطفال ناشئة عن غريزة الاعتداء والميل إلى الخراب والتدمير .

الغريزة التناسلية :

كان الرأي السائد قديماً أنها تبدو عند سن المراهقة ، ولكن المسلم به الآن أنها تظهر عند الطفل وهو في مهده رضيعاً كما يقول « فرويد » كما تدخل في طور جديد عند ما يبلغ الطفل الخامسة من عمره ، ومن الخامسة إلى أن يبلغ سن المراهقة يسميه « بالطور الكامن » تكون فيه الغريزة مكبوتة بدافع من الحياء وحب قواعد الأخلاق والعرف ، ثم بعد سن المراهقة بعامين أو ثلاثة يكون ميل الشاب أو الشابة أقرب إلى الحب الأفلاطوني والهوى العذري البريء منه إلى الحب المادي . والسبب في ذلك أن الشاب في مثل هذه السن يكون ميالا إلى المثالية « والرومانتزم » وتحلو له الأحلام وقد يتهرب من لقاء المرأة مكتفياً بالطيف محتقراً — إلى حد ما — اللذات الجسدية . وقد عزا السيكولوجي « مندوس » هذه الظاهرة إلى حصانة من جانب الطبيعة ترمي إلى التريث حتى تنضج الأحياء الملقحة فتكون وقتئذ أقدر على أداء وظيفتها . وقد شرح « مندوس » هذه الظاهرة وغيرها في كتابه الممتع « عقلية المراهق » .

والغريزة التناسلية كما يعلم الجميع ترمي إلى بقاء النوع . وكلما كان الكائن الحي من حيوان أو نبات ضعيفاً كان لزاماً عليه أن يكثر من النسل ؛ لأن أغلب ذراريه — لضعفها — عرضة للفناء على حد قول الشاعر العربي :

بنات الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلاة نزور

دكتور
فضل أبو بكر
عضو بعثة فاروق الأول الرياضية بفرنسا

والتجارة ، واحتكارها للتوابل وطرق النقل بين الشرق والغرب . . فأين هذا مما يدعون من الخراب والفوضى وحشر هذا داعماً مع العروبة والإسلام ؟ ! .

فإذا تركنا العصور الأولى ودخلنا العصور الوسطى كما يقولون: أرانى على حق إذا أشرت إلى ما جاء به الدكتور جمال الدين الشيال فى العصر المملوكى : من ذكره ما أدخل على نيابة الاسكندرية من محاسن ووصفه كيف كان يخرج نائبها بالموكب الرسمى من دار الإمارة . وقد عدت إلى صبح الأعشى[1] وقرأت ما كتب عنها وما ذكر من أنها نيابة جليلة ونائبها من الأمراء المقدمين وهى تضاهى فى الرتبة نيابة طرابلس الشام ، وجاء فيه : « فإذا سار (النائب) إلى دار النيابة ... وضع الكرسى فى صدر الديوان ينشئ بالأطلس الأصفر ووضع عليه سيف عجاة سلطانية ومد البساط تحته » .

لقد أنصف قسم التاريخ — فى شخص الدكتور الشيال — الاسكندرية لأول مرة ، وأنصف فيها تاريخ مصر الإسلامى . وكم يكون عمله مستكملا لو كشف لنا أسماء النواب ابتداء من سنة ٧٦٧ هجرية أى فى الدولة الأشرفية شعبان إلى زوال الدولة المصرية بانتهاء حكم النورى .

إنه ليسهل الحصول عليها فى نظرى ، فقد اطلعت فى عصر الملك الظاهر برقوق من حوادث يوم الاثنين رابع ذى الحجة سنة ٧٨٩ هجرية (ديسمبر ١٣٨٧ — يناير ١٣٨٨ ميلادية) : « خلع الملك الظاهر برقوق على الأمير زين الدين أمير حاج بن الأمير علاء الدين مُغْلطاى وولاه نيابة السلطنة بثغر الاسكندرية عوضاً عن الأمير بجمان المحمدى بحكم عزله . وفى يوم الجمعة ١٢ ذى الحجة توجه طُلُب الأمير زين الدين أمير حاج إلى ثغر الاسكندرية نائباً بها »[2] .

وممن ولى نيابة الإسكندرية بزلار بن عبد الله العمرى المتوفى سنة ٧٩١ هجرية ترجم له القاضى زين الدين طاهر بن حبيب فقال عنه : « كان أميراً لطيف المقالة وافر الهمة والشجاعة فى كل ملحمة شديد القوة فى اللعب بالسمهرى والحسام تصيب سهامه كل غرض يصوبها عليه » .

فهؤلاء رجال تولوا الحكم فى العهد الإسلامى ، وأعتقد أن أسماءهم جديرة بأن توضع على الطرق والشوارع ، بل هى أولى من الأسماء الأعجمية التى يواجهها كل من زار الثغر الإسكندرى ؟ فينظر إليها ويتأسف .

إننى واثق من أن جامعة فاروق ستكشف صفحات خالدة فى تاريخنا القومى للمدينة ، وتثير رأى الناس فينا .

أكتب هذا وأنتظر الشىء الكثير من معهد الاسكندرية الدينى وأؤمل أن يبث رجاله وعلماؤه الحياة فى التراث الدينى للثغر الإسكندرى لكى نتعرف إلى أئمته وعلمائه وأوليائه : فنقرأ تراجمهم من جديد ونسعى لزيارة قبورهم ونبهرنا آثارهم وما خلفوه من دراساتهم .

وإليك قطرة من بحر زاخر بالأحياء من السلف الصالح ، قطرة من أوائل القرون الأولى :

فى ١٧٧ هجرية توفى بالإسكندرية عبد الرحمن بن هرمز الأعرج الذى صاحب أبى هريرة .

١٣٥ — « توفى أبو عقيل زهرة بن معبد التيمى بالإسكندرية عن سن عالية . قال الدارمى زعموا أنه كان من الأبدال روى عن أبى عمر وابن الزبير .

١٦٧ — « توفى أبو شريح عبد الرحمن بن شريح المعافرى بالإسكندرية روى عن أبى قبيل وطبقته وكان ذا عبادة وفضل ؛ قال السيوطى فى حسن المحاضرة ذكره ابن حبان فى الثقات .

١٨١ — « ومات بالإسكندرية يعقوب بن عبد الرحمن القارئ الذى روى عن زيد بن أسلم وطبقته .

٢٨١ — « توفى العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الواز الإسكندرانى المالكى صاحب التصانيف أخذ عن أصبغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم وانتهت إليه رياسة المذهب وإليه كان المنتهى فى تفريع المسائل .

أين علماء الإسلام وحملة أنوار الشريعة المحمدية وأين قضاة الإسكندرية فى هذا الزمن ، بل أين أصحاب المذهب المالكى ؟ مالهم يحفرون هذه الأنوار عنا وراء ظلال المهجمين على تاريخنا الخالد ؟

أقولها كلمة حق : يا قوم إن تسعة أعشار الإيمان قوة وسلابة وشجاعة : ولكم أسوة فى شيخ الإسلام ابن تيمية الذى نزل سجينا فى برج من أبراج مدينتكم وكان له شباكان أحدهما يطل على البحر والآخر على المدينة وتردد عليه أسلافكم من الأكابر

(١) ص ٦٣ الجزء ٤ (٢) ابن الفرات ٤١ ٣٢

والأعيان والفقهاء يقرؤون عليه ويستفيدون منه ، فهل هذا الاعتقال من عزيمته ؟ وهل أنقصت الأيام وشدتها من حماسته وشجاعته ؟ كان قوة من قوى الإسلام الدافعة ، فليكن منكم فريق على سنته وإقدامه ...

أقول هذا وأمامي أسماء من تولوا القضاء بهذا القطر في عصور الإسلام الزاهية ، أود لو يتسع المدى أمامي فأتكلم عن كل واحد منهم ، أحقق عصره وأخرج من كتب التراجم حياته وآثاره ؛ ولا أخص أشهرهم ولا أعلمهم ، وإنما بين يدي قضاة الملك الظاهر برقوق وبينهم القاضي جمال الدين الشهير بالحيدي الفقيه الحنفي تولى بعد القاضي عماد الدين ، ولو شئت المزيد فارجع إلى ما تركه من آثار تجد أن ناحية القضاء الإسلامي ميدان لا يزال بكراً يطلب البحث والدرس والتقييد والإفاضة .

فإلى قضاة القطر الوطنيين والشرعيين أوجه كلامي فهي عند كل منهم أمانة . وما القضاء الوطني إلا تكملة للقضاء الإسلامي وشعاع انبثق من أنوار ساطعة في فترة أربعة عشر قرناً من الزمن .

أما تاريخ الإسكندرية الحربي فهو صفحة من صفحات الخلود لم تكتب بعد . ولن أحدثكم عن عمل الإسكندريين في حروبهم وقتالهم ، وإنما أكتفي بأن أشير إلى بطولة امتازوا بها خلال القرون الماضية وهي حماية الحصون والقلاع ، وخدمة الأساطيل الإسلامية .

جاء في حوادث سنة ٢٦١ هجرية أن إبراهيم بن أحمد بن محمد ابن الأغلب ولي إفريقية وحسنت سيرته فكانت القوافل والتجار تسير في الطرق وهي آمنة ، وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبتة إلى الإسكندرية فيعمل الخبر منها الإسكندرية في ليلة أو أكثر وبينهما مسيرة أشهر

وجاء في حوادث سنة ٦٧١ : اهتمام الملك الظاهر بيبرس بأمر الشواتي وكيف أمر بإعداد مائة منجنيق ونصبها على أسوار الإسكندرية .

وجاء ذكر أبطال من الرجال حذقوا رماية القوس من أهل القطر واختصوا بحماية الأبراج ؛ فهؤلاء أتى بهم يوماً الظاهر برقوق واستعرضهم بالقاهرة تحت اسم رماة القوس بالرجل .

ولست أعرف مدينة من مدن البلاد العربية ضاعت آثارها الإسلامية وأزيلت أغلب معالمها مثل مدينة الإسكندرية . وقد حاولت أن أجد لذلك مبرراً فلم أقدر : سوى تلك الرغبة التي نراها في عبادة الذهبيات التي انقرضت ، واتهام المسلمين بأنهم قوم يسرع الخراب على أيديهم . فأسوار المدينة في العهد الإسلامي وأبراجها قد أزيلت ؛ وكانت بقايا باب رشيد لا تزال قائمة فإذا بمكانها يستعمل حديقة عامة ؛ وتحت شعار أن القبور لا تحوي أجسامها أزيلت معالم المدينة الإسلامية وقبور العلماء والأولياء والصالحين ، وكل ما يذكرنا بماضينا : حتى أسماء الأحياء والشوارع قد تغيرت باسم التجديد . فكأنما قد ولدنا اليوم ، وكأننا قد بدئنا وليس لنا ماض يذكر وتاريخ يعرف . ولولا عناية كريمة شملت قلعة السلطان قايتباي تستحق أن نحمد ونشكر ، لبقيت جدرانها مهدمة وزالت مع الزمن .

إن النهضة الصحيحة هي التي تستند على تاريخنا العربي وتذكرنا بأيامنا ومواقفنا ، وأعيد ما سبق لي أن كتبته يوماً ونشرته :

« إننا مأثر الأمم الإسلامية أصحاب مجد وتاريخ وصولة على هذا الكوكب الأرضي ، وهو تاريخ حافل بأيام العراك والكفاح والنصر والهزيمة ، وهو في قوته وبروزه وآثاره لا يمكن أن يقارن به تاريخ أية أمة من أمم الأرض مهما علا كعبها في الحضارة » .

أحمد رمزي

من مؤلفات نقولا الحداد العلمية

	ص
عالم الذرة أو الطاقة الذرية	٢٠
هندسة الكون بحسب ناموس النسبية	٣٥
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن	١٠

تطلب هذه الكتب من دار الرسالة ومن المؤلف في ٢ ش البورصة الجديدة ومن بعض المكاتب خالصة أجرة البريد